مجلة رفوف – مخبر المخطوطات – جامعة أدرار – الجزائر ـــــــــــــــــ المجلد: 14 / العـدد:02 (نوفمبر 2026) ص 744– 755
ISSN: 2335-1381 EISSN: 2602-5949 Legal Deposit: 2013-6352

من التَّبَعيّة إلى المَركَزيّة الاجتماعيّة الرّمزيّة: رواية "تنهينان" لِـ "كفاح جرار" أُنموذجًا

From Dependency to Symbolic Social Centrality: The Novel "Tin Hinan" by Kifah Jarrar as a Case Study

الدكتورة: دلال حلايمية
Dr: Dalal Halaimia[1]
جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، d.halaimia@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: 2026/07/14	تاريخ القبول: 2026/11/03	تاريخ النشر: 2026/11/25

الملخص: يَدرُسُ هذا البحث تَمرُّدَ المرأة سَردًا في التاريخ القديم على الرَّجُل الذي لا يُثبتُ فحولَته، والتَّصوّراتِ بشأنه حين يَرغب في أن يَكون شريكًا في الحياة، كما يُعَدُّ هذا الموضوع مثيرًا للجدل في كل المجتمعات؛ إذ لا يُمكن إنشاءُ علاقة الزواج إذا ما وُجِدَ تناقض بين الشَّريكَين، لا سِيّما إذا كانت المرأة سَيِّدةً في قومها. وقَد يَزداد الأمرُ تعقيدًا في وجود سلوكات أنثويّة لم تَتَعَوّدها في الرّوايات في هذا النوع من الرِّجال. وبهذا نفتح باب الدراسة على نهاية نظريّة الزّعيم الرّمزيّ، في الروايات التي اعتدنا فيها على مثل هذه القوانين التَّخييليّة في السّرد، لتنشأ مؤسَّساتٌ غير معتادة في بنية المجتمع، وتُسهِم في تَحَوُّل السُّلطة حسب معطيات التاريخ والمجتمع، وحتى الشخصيات. كما أن هذه الهامشيّة هي نِتاجُ تفاعلِ أنساقٍ كثيرة، إثنيّة واجتماعية يَرفضها نظام معيّن.

كلمات مفتاحية: تبعية، إثنية، هامش، مركزية، أنثروبولوجي.

Abstract:

This study investigates the narrative rebellion of women in ancient history against the man who fails to prove his virility, alongside the perceptions surrounding him when he desires to be a life partner. This theme is considered controversial in all societies, as marriage cannot be established if a contradiction exists between the partners, especially if the woman is a queen. The matter may become further complicated by the presence of feminine behaviors, unaccustomed to in novels, within this type of men. Thus, the scope of the study is opened to the demise of traditional centrality and the overturning of the theory of the symbolic leader in novels where we have grown accustomed to such fictional laws in narrative, giving rise to unusual institutions in social construction, which contribute to the transformation of power according to the determinants of history, society, and even the characters. Furthermore, this marginality is the product of the interaction of numerous systems: ethnic, and social, that are rejected by a given system.

Keywords: dependency, ethnicity, margin, centrality, anthropological.

المؤلف المرسل: د. دلال حلايمية، **الإيميل**: d.halaimia@univ-setif2.dz

1. مقدمة:

تتجذر الثنائيات الضدية في تفاصيل ثقافتنا وذهنياتنا ومجتمعاتنا، لتترسّخ كقاعدة في تعاملاتنا الواقعية والتخييلية معا، تكشف عن عن هويتنا وحضارتنا، وما هذا الجدل بين الأنا والآخر، والمركز والهامش سوى صورة عن نسيج الكثير من المجتمعات، من بينها المجتمع العربي، وقد انطلقت هذه الثنائيات من معتقداتهم متجهة نحو الخارج، فتتشاكل مكونة رؤية لموضوعات هامة من الموضوعات الإبداعية الأدبية، التي لم تتردد في رسمها قضايا هووية وصراعية بين المرأة التي نشأت سيدة والرجل الذي فقد فحولته التي تعودت عليها هذه المرأة في مجتمعها، ومقومات الريادة والسيادة، ويؤكد المؤلف في رواية "تنهينان" هذا الإشكال، في تشكيله للمجتمع الذي عاشت فيه البطلة بؤرة توتر لبناء نسق الهيمنة الذي اكتسبت المرأة شرعية الإمساك بزمام سلطته على المستوى التاريخي والاجتماعي، فيدفعها إلى أفق الاختلاف مع الرجل الذي لم تؤهله سلوكاته للرقي إلى درجة القبول به زوجا، وقد جسدت الرواية مجتمعا يستدعي تيارين "الغالب والمغلوب"، ومن خلال هذا التقديم نجد أمامنا مصطلحين أساسين، وهما: المركز والهامش، فما مفهومهما؟

ومن الفرضيات التي أوجبها هذا البحث أن التهميش ناتج عن تداخل الكثير من الأنساق، وأن هذا الرجل الغريب عن أهلها يعبر عن آليات العنف الرمزي والصراعات الإثنية والاجتماعية، أما الدراسة فتهدف إبراز المرجعيات والدوافع التي أدت إلى هذا التهميش، وتبيان العلاقة بين التمرد والسلطة والجندر في تشكيل المكانة داخل المجتمع، وهذا ما أسهم فيه المنهج الأنثروبولوجي الثقافي في هذه الدراسة.

2. مفهوم المركز والهامش:

إذا نظرنا إلى المفهوم المعجمي، نجد في معجم المنجد في اللغة العربية المعاصرة في مادة (همش)، همش، هامش: حاشية: هامش الصفحة، إضافة وتعليق: على هامش الأخبار، عاش على الهامش: عاش مفردا لا يندمج في المجتمع.

هامشيّ: من يعيش منفردا غير مندمج في المجتمع، مكتوب في الهامش: تعليقات هامشية: لا دخل له بما هو مهم، لا علاقة له بالنشاط الأساسي: مشاغل هامشية، همش: أضاف ملاحظات على الهامش، وقولنا همش كتابا: جعله ثانويا (وهمش مسألة)، مهمّش: ما به تعليقات على هامشه (بحث مهمش)، وهو بمعنى ثانوي غير أساسي (قضية مهمشة) (حموي، 2000، صفحة 1940).

وبناء عليه، تكون صفة عدم الاندماج مع الكل هي الدلالة المشتركة لمعنى التهميش.

وورد في قاموس المحيط (الهامش) بمعنى"حاشية الكتاب" (البستاني، 1995، صفحة 648)، ومن هنا أوحت لنا الكلمة بدونية الشيء أو تواضعه في حين نستمد من هوامش الكتب ثقافة قد لا نجدها في الكتب نفسها، إذن فالهامش كلمة ذات معنى موجب وسالب في الآن نفسه.

وغير بعيد عن المعنى اللغوي للمصطلح نجد أنّ الهامش لا يتعلق بفئة سياسية أو شريحة اجتماعية أو ما جرى مجراها من النماذج والأفراد وحسب بل هو ضرب من التفكير ونوع من الإحساس وطراز من السلوك وهو حال بذاتها، وكائن فيها، والانصراف عن هذا الهامش والابتعاد عن الذات ابتعاد عن إنسانيتها.

وتطابقا مع هذا التصور للمصطلح يقول "**سعيد شملال**": "إذا كان التهميش الاجتماعي مرتبطا أساسا بالمجتمع، فإن التهميش الفضائي مرتبط بشكل رئيسي بالفضاء والمكان والجغرافيا"" (شملال، 1995، صفحة 648)، وقد تم التركيز في هذا الرأي على المعنى الضيق للمصطلح بمعنى الانطلاق في مفهومه من المستوى الاجتماعي، حتى لا نبتعد بالمفهوم بعيدا عن إشكال الدراسة.

فالهامش هنا ضرب من التفكير داخل مجتمع بعينه، وهنا يجوز أن تكون هناك علاقة حتمية تستدعي وجود المركز، ففي ظل وجود هامشية الرجل استدعاء لسيادة المرأة وهو ما سنفصل الحديث عنه في الجانب النظري.

وفي مقطع آخر يقول: "تجربة الهامشية هي بمثابة إفراز حتمي للتضاد الذي يحكم ويحدد علاقة المركز بالهامش، حيث إن هذا الأخير يتم حصره ضمن موقع اجتماعي معين يمنع نفاذه إلى السلطة ووسائل التمثل والإنتاج، وهكذا فإن الهامشي يوحي بتموقع يمكن تحديده بعدم قدرة وصول فرد ما إلى السلطة" (شملال، 1995، صفحة 649)، إنّ التضاد الذي يحكم المجتمع يستلزم وجود سلطة ترتبط بالمركز فيصبح الهامش من خلال ذلك تابعا له وخاضعا لأحكامه.

وما يهمنا، كما سبق الحديث، هو الهامش على المستوى الاجتماعي الذي يجعل الكتابة الإبداعية تحتوي على شحنة مكثفة من الأنساق المضمرة، والتي لا يمكن الكشف عنها داخل مجتمع محافظ له قوانينه التي لا يحيد عنها، خاصة إذا تعلق الأمر بالرجل/المرأة، والتي تقابل من ناحية أخرى ثنائية القوة/الضعف.

أما في معجم العربية الكلاسيكية المعاصرة، فقد وردت كلمة المركز بمعنى "أحد أقسام المحافظة في التقسيم الإداري، والمركز أيضا يحمل معنى مكانة أو منزلة، وهو مقام أو مرتبة، ومركز الدائرة هو نقطة داخل الدائرة تتساوى المستقيمات الخارجة منها إلى المحيط، ومركز التجاذب هو النقطة التي يبدو أن الجسم يجذب نحوها دوما تحت تأثيره قوة الجاذبية" (رضا، 2004، صفحة 1458/1257).

بناء على المعنى اللغوي للمصطلح يبدو أن المركز يحمل معنى الموضع والمقر الثابت، في حين أن المعنى الاصطلاحي يقترب إلى حد ما من هذا المعنى، نظرا لكون أن المركز والهامش أصل جامع وموضوع محيط يقف على ما يبني الثقافة ويؤسس مرتكزها ومدار السلطة فيها، ويبحث فيما يتعلق بالمركز من هوامش يشدها وتشده.

فالمركز هو ذلك النوع من الأدب الذي "يخدم الطبقة العليا في المجتمع لذلك فهو دائما محتفى به ومحاط بالاهتمام والحظوة لأنه النموذج المكتمل الذي يحتذى به، لا لكونه بلغ الذروة في كمال التعبير، ولكن لكونه موافقا للسلطة ولمخططاتها وهو بمثابة وسيلة إشهار ودعاية لها لأنه يشيد بإنجازاتها ولو كانت فاشلة" (تبرماسين، 2014، صفحة 30).

وانطلاقا من العلاقة بين المصطلحين نستنتج أن:

ثنائية الهامش والمركز، تجمع بين شيئين تكونت بينهما علاقة ضدية شبيهة بالصراع الأزلي بين الذات والآخر، حيث قررت الفئة المهمشة نفض غبار الاضطهاد الذي عوملت به لعهود طويلة ومن ثمة اقتحام حلبة الصراع ومعترك الحياة الذي كان هاجسا مستحيل التحقق بالنسبة إليهم، وقد أنجب لنا هذا الوضع المؤسف الذي عايشه الكثير من المبدعين أدب سمي بأدب الهامش، فثقافة الهامش ثقافة الحياة والأمل والتوثب تصنع بلاغتها بعمق الاختلاف والتباين والخوف مسكونة بروح المغامرة مفتونة بالابتداء والابتداع ترفض السكينة والاستقرار والاطمئنان.

وبالتالي فالهامش ثقافة تمارس الخروج الخلاق وتبني بلاغة الحداثة والحرية والانعتاق، وتسعى إلى خلخلة المركز وزحزحته لا لمجرد أنه مركز وإنما لتؤكد أن ثقافة الفرد الواحد والذات الواحدة وثقافة المطلق تقف في وجه الدخول في العصر، في حين أن ثقافة المركز هي النموذج الأمثل والمكتمل الذي يحتذى به لهذا فهو يحظى بالرعاية السامية.

وإجمالا فالمركز هو القوة والثبات إليه يرتد القرار، كما أنه نموذج للاحتذاء والنسيج على منواله، إنه القوة التي ترشح وتقضي وتعقد وتحل الأطراف في مقابل هامش يمثل فرعا وإقصاء وتبعية وقمعا، وتكون الهامشية في الأدب والمجتمع والاقتصاد والسياسة وغيرها، وكلها تصب في معنى النبذ تقريبا: " .. أما الهامش فيطلق على كل أدب منبوذ ومتجاوز لسلطة المركز" (مشقوق، 2011)، وهذا المفهوم يجسد لغة الصراع الدائمة بين المركز والهامش، ويكرس للثنائية الأنا والآخر، ومن الناحية الاجتماعية فـ: " إن واقع المجتمعات الهامشية وأشكال مقاومة المهمشين، ظلت بعيدة عن دائرة اهتمام مؤسسي نظريات الفعل الجماعي والحركات الاجتماعية، الذين جعلوا من

التنظيم والوعي السياسي شرطين أساسيين لبناء فعل المقاومة" (المؤلفين، 2011، صفحة 16)، وبذلك يصبح التهميش مقبرة المهمشين وسلاح أصحاب السلطة رغم أن الثورات والتغييرات التاريخية كانت بيد الفئة المنبوذة.

من هذين المفهومين في المجتمعات، ينتتج ما يسمى بالتعصب، وهو أنواع (التعصب الديني، التعصب القومي، التعصب العنصري، التعصب الاجتماعي، التعصب السياسي، التعصب الجنسي .....)، مما يؤدي إلى صراعات على مستويات مختلفة في حال رفضت مجموعة بشرية نوعا من أنواع التعصبات الممارسة في حقها، ومن ثمّ "تكوين مشاعر معادية لهم على أسس قبلية وفئوية، وهو أمر يفرق المجتمع ويشتته" (الكندري، 2016، الصفحات 5- 6)، ويشتغل هذا كله على إذكاء روح التعصب ثم الثورة حتى لا تستلب هويتهم التاريخية والثقافية، والتي تمنعهم من ممارسة حقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما هذا العنف سوى ثقافة هامشية وخطابا مضادا يثبت إصرارهم على البقاء.

وما لاحظه علماء الاجتماع أن السبب الرئيس في نشأة هذا الصراع هو التمييز العرقي، حيث قالوا: "وبدلا من جعل الإثنية والعرقية في مرتبة هامشية بعد مفهوم الطبقة الاجتماعية، فإن تحليل الإثنية والعرقية من خلال مفاهيم الطبقة قد ألهم مجموعة من الباحثين من أمثال سيدريك روبنسون Cedric Robinson في عمله "الماركسية السوداء-...، وكذلك س.ل.ر جيمس C.L.R James، وريتشارد رايت Richard Wright الذي انتقد النماذج الأوربية غير الدقيقة في تفسير التغير التاريخي والاجتماعي دون مراعاة دور السود في هذا الأمر" (لوو، 2015، صفحة 140).

فهدا التمييز العرقي قد تحول إلى مبرر لإقصاء مجموعات بشرية كبيرة، وخلق عنفا صنع من خلاله داخل المجتمع الواحد ثقافة الآخر، فهل هذه المفاهيم تنطبق على المجتمع في رواية تنهينان أم أن المعايير تختلف؟

3. الرجل الفاقد للفحولة بوصفه هامشا في رواية تنهينان:

"تنهنان" لكفاح جرار رواية تتحدث عن المرأة التي قادت مجتمعا، هربت من ديارها باحثة عن الحرية جمعت مجموعة من قومها، وأخذوا طريقا إلى الصحراء لتأسيس وطن جديد هروبا من قرار أبيها الذي أراد تزويجها برجل أسود رأت فيه ملامح أنثوية لم ترتح لها، رغم أنه سيد في قومه، نفدت منهم المؤونة، فانتبهت الخادمة (تكاهمات) للنمل الذي يحمل حبات قمح، فأمرت الأميرة قومها بالمشي عكس اتجاهه، حتى وصلوا إلى جبال الأهقار، حيث عثروا على المياه والطعام، فاستقرت هناك وبدأت بتأسيس وتشييد مملكتها الجديدة، وأصبحت الملكة الأولى على قبيلة الايموشاغ الجديدة في مكانها الصحراوي الجديد، فدافعت عن سكان الهقار ضد الغزاة، ثم تزوجت وأنجبت طفل أسمته "أهقار" أسست جيشا قويا في إرساء قواعد السلم في جنوب الصحراء، فكانت تنهنان عند التوارق ملكة

سلم وملكة حرب، توفيت بعد إصابتها في رجلها في إحدى المعارك، وكانت تقول عبارتها المشهورة: "هكذا تقام الدولة وبهذا يقاد الناس وكانت تشير إلى لسانها وقلبها"، المرأة التي غيرت خارطة النزاع الصحراوي برمته بشجاعتها وكفاحها ودفاعها عن شعبها وشخصيتها الفذة، فكانت الأساس لهويتها الأمازيغية، فاستحقت لقب الأم المؤسسة لمجتمع التوارق.

ومن العنوان: "تنهينان نمرة الجنوب" (جرار، 2014، صفحة 1)، نجد خصوصية الاسم الذي أطلقته عائلتها الأمازيغية عليها، حيث اشتهرت تينهينان بهذا الاسم بسبب أنها كانت بارعة في نصب الخيام (جرار، الملكة تنهينان، 2022)، ثم جاور هذا الاسم في العتبة وصف نمرة الجنوب، ونحن نعلم أن النمور لا تعيش في المناطق الجنوبية الصحراوية، وبذلك قد استعار الكاتب هذا الوصف من أجل خلق دور جديد لتنهينان، ويمكن عدّه إشارة مفتاحية لقلب الموازين في المجتمع، ليأخذ من الاسم "نمرة" القوة والشراسة للتعظيم من شأنها، وهنا نرى أن العنوان قد أسس لدلالات مضاعفة، ومارس عملية الإغراء على القارئ ليدخل في لعبة القراءة، وكشف المضمرات داخل هذه الرواية، وسنرى ذلك من خلال تتبع مسار السرد في هذه الرواية.

أما في العناوين الفرعية فنجد: "تنهينان والعريس الأسود" (جرار، 2014، صفحة 7)، فيتبادر للذهن أن التفرقة هنا على أساس اللون، فنظن أن تنهينان قد ترتبط به أو ترفضه بسبب اللون، وهذا العنوان يشبه العدد المجهول في لغة الرياضيات، والذي إن لم نعوضه بعدد مناسب وصحيح لن يتم حل المعادلة ولا إيجاد النتيجة المرجوة، وصفة الأسود هنا ترجئ الحلول والتأويلات حتى نكمل بقية الأحداث، فتتراكم التساؤلات في الذهن، لأن العنوان هنا يسبب نوعا من الانفعال والتوتر لدى القارئ، لتحفزه على معرفة المزيد، ويتحول العنوان في هذه الرواية إلى مشروع للتأويل، فقد خلق هنا علاقة عكسية بين السبب الحقيقي لرفض الزواج (عدم توفر الفحولة)، وبين العلامة اللغوية التي تمارس نوعل من التمويه لتحقق صدمة للقارئ من خلال التفاصيل التي تحدث في الرواية.

لنجد في العنوان الآتي ما يثير الاستفهام: "تنهينان الهاربة" (جرار، 2014، صفحة 38)، فكيف لنمرة الجنوب أن تهرب؟ ولماذا؟ وممن؟

إن الهرب لا يدل دائما على الخوف أو الجبن، بل في مواقف معينة يكون فطنة وشجاعة وذكاء، وهو طريقة للابتعاد عن الضغط في الأماكن التي لا يجد فيها الكثير من العظماء ضالتهم، وهرب تنهينان من الرجل الذي رشحوه للزواج منها ما هو إلا حيلة لكسر قيود القبيلة، وفك الحصار عنها لجعلها عروسا لمن لا يليق بها، ولأن الزواج في هذه الحال قد تحول إلى وسيلة "لتعزيز هيبة الأب من خلال صهر يملك رأس مال أمني في زمن

غابت فيه الحماية" (مزهر، 2024، صفحة 538)، فكان الحل أن ينتج مجتمع جديد بقوانين جديدة ضد السلطة الأبوية، وهذا ما يثبته العنوان الآتي:

"تنهينان الأميرة" (جرار، 2014، صفحة 61)، فقد تمت خلخلة الموازين والقوى، وتحولت البنت المستغلة إلى أميرة، بعد تحطيم القيم الزائفة، فصنعت من تمردها بنية ضدية غيرت نمطية النتائج من التمرد والهروب، وتعيد تشكيل التاريخ من الناحيتين: الاجتماعية والسياسية، فلم تعد ذلك الكائن المسخر لخدمة الآخر، وما تمردها إلا انقلاب على البنى الاجتماعية والثقافية التي سيطرت على قبيلتها، لتعلية سلطة الحرية ومن ثمّ سلطة المرأة لتخلق عالما موازيا يحقق العدالة والقوة والتوازن بين الأنا والآخر، فالأميرة هنا هي تلك المرأة التي شكلتها ثقافة مجتمعها بأبعادها الروحية والعقلية ووعيها بالعالم.

وتتحول إلى: "تنهينان ملكة الصحراء" (جرار، 2014، صفحة 124)، وهذا ما نصفه باستعادة الذات، التي أعادت من خلالها بناء صورة جديدة للمرأة ولنظام الحكم بمختلف تجلياته من خلال هذه التراكمات المتصارعة بين الحرية في الطفولة، ثم العيش برؤية خاصة للشريك (الرجل) حسب الفطرة السليمة للمرأة، مع محاولة جعلها تابعة لرجل وافد من خارج الأرض والقبيلة، لم يحمل من رجولته سوى الاسم والجاه، لتستعيد البطلة تنهينان هويتها التي حاولوا سلبها، برفض جميع أنواع السيطرة والعنف، لتصبح ملكة في الصحراء، كما لو أنها أعادت تنظيم سردية المرأة من جديد كما تربت في هذا المجتمع (الجنوب) منذ صغرها، معززة ولها مكانتها وحريتها، وما هذا التغيير الطارئ على حياتها إلا بسبب الدخيل الذي حاول أن يهدّ كيانها مثل المرض الذي يضعف بنية الجسد ويهدد مناعته، فكان هربها دواء ومحاربة له لتقوية مناعتها ومكانتها.

وفي المقاطع السردية الآتية ستظهر المرجعيات والمعطيات التي هيأت هذه المرأة لتكون مركزا مسيطرا لا هامشا مسيطرا عليه:

"كانت دائما تقول لنفسها، وأي رجل هذا الذي يستحق أن أقع في حبه وغرامه، وحتى إن وقعت فعليه أن يقع هو أولا ويقبل حذائي، تتردد قليلا ثم تتراجع قائلة: لا لا كبيرة هذه حذائي، فليقبل قدمي المخضبة بالحناء عشر مرات حتى أقول له نعم، وكان في أسرتها وعائلتها من هو على استعداد لفعل ذلك ..." (جرار، 2014، صفحة 8)، في هذا الحوار الداخلي لتنهينان يتبين التصور الذهني والاستعلاء على الآخر، حيث تم تشخيصه على أنه الأدنى مكانة، فالتصورات التي رسمتها لتقبل بمن تقدم لخطبتها في جوهرها عبارة عن رؤية سلطوية، وهي مفتاح عام لسلوكات الشخصية فيما بعد، انطلاقا من شعورها بالأفضلية التي جسدت من خلالها ثقافة مضادة لأعراف مجتمعها البطريكي، فتنهينان لم تعش الإهانة ولم تكن في قبيلتها مسلوبة الهوية ولا محاصرة بالنظام الاجتماعي

المنغلق، إذ بترت من البداية كل العلاقة القائمة على الاستعلاء حتى قبل أن تتكوّن، وخلقت لنفسها مكانة رسّخت أبعادها وصممت على تطبيقها.

في المقابل، وفي المجتمع ذاته نجد نوعا آخر من النساء والتي تتنازل عن حريتها ومكانتها، بقولها: "أجابت: إن الرجال عندما ينصحون فهم يقررون، ويجب تنفيذ قراراتهم، أما نحن النسوة فننصح حتى لا نترك للرجال متسعا من الحرية، يحددون فيها من بعد مصائرنا" (جرار، 2014، صفحة 10)، وهذا النوع من الرؤية التراتبية يورث الطبقية والاستغلال في المجتمعات، واحتكار السلطة الاجتماعية والهيمنة، ومع مرور الزمن أصبح المجتمع (والنساء في المجتمعات التقليدية على وجه الخصوص) يؤمن بها وتبدو طبيعية.

أما والدة تنهينان فلها وجهة نظر خاصة: "قالت: ولن نجد أفضل من هذا نسبا وصهرا وحليفا، سوف تدين لنا الصحراء جميعها، لكن هل ستوافق ابنتنا المدللة على هذا الزواج؟ سألت المرأة وهي تشيح بوجهها عن زوجها" (جرار، 2014، صفحة 18)، وهنا نلاحظ عدم خشية الأم أن ترفض ابنتها الزواج كما هو ظاهر في بنية الكلام، بل تخشى ما يترتب عن هذا الرفض من خسائر، لتجعل مصلحة القبيلة أولى من مصلحة ابنتها، فيصعب تعويض هذا المكسب والتحالف الاجتماعي، فيصبح الزواج من خلال هذا المنظور مؤسسة اجتماعية جديدة تحصل من خلالها القبيلة مكانة أعلى وحصانة أقوى والتي أعادت تنهينان فيما بعد تشكيلها في إمارتها الجديدة، فقد فككت البطلة حتى التبعية الذهنية والعرفية التي تسلّم بتشابه الابنة مع الأم، وكسرت قيود الموروث الثقافي والاجتماعي، دون أن تسمح للآخر مهما كانت علاقتها به بأن يجعلها التوتر الوجودي، مما أسس لها مرجعية متينة لتبني مملكتها فيما بعد.

ثم يفصّل الكاتب جغرافيا وعرقيا مجتمع الجنوب: "وكانت تينيرت من الإيموشاغ، الذين سكنوا واستقروا في الصحراء الإفريقية الكبرى، لجهة غدامس وغات وتمنغست، وكان هؤلاء بيض البشرة، أو يميلون إلى السمرة المرغوبة المحببة، فلم يحملوا من إفريقية إلا بعض لونها العذب، فيما كان خطيبها الآتي من جنوب الصحراء من قبائل الأوزاغ الذين يسكنون على شواطئ نهر النيجر، وهؤلاء تميزوا بإفريقيتهم لكن المخففة جدا، مقارنة بجيرانهم من القبائل الإفريقية ذات السمات الجسمانية السوداء .." (جرار، 2014، صفحة 20)، وبذلك نجد أن الزعامة والمكانة الاجتماعية يحسبان استنادا للكثير من المعطيات والمرجعيات وحتى الموقع الجغرافي، وعليه فإن هذا التقسيم يخلق أنساقا ثقافية متصارعة عبر الزمن، خاصة تلم المبنية على الاختلافات البيولوجية والجينية والتي تستخدم الفرق في اللون والعرق لإنتاج مراتب اجتماعية وتفرضها دون شرعية، ورغم الجمال الذي اكتسى هذا الرجل من خلال لون بشرته وعضلاته فإن خللا ما قد لاحظته تنهينان من نواح مختلفة جعلتها ترفضه.

إن التعسف في التعامل مع من تراهم القبائل والمجتمعات الأدنى يصل إلى حد تزويج امرأة بشخص لا تعرفه: "كان خطيبها الذي لم تره، من قبائل الصحراء الجنوبية، وكانت هي تواقة للرحيل نحو الشمال، فوقع خبره على رأسها كالقضاء المكروه، ما دفعها للتضحية بكل شيء من أجل حريتها وكرامتها، التي هي باعتقادها جوهر حياتها، لقد تمردت على أسرتها من أجله ..." (جرار، 2014، صفحة 21)، وما رفض امرأة من الجنوب لهذا الزوج في البداية إلا دليل على استعدادها الفطري للثورة والتمرد، والمعادلة الواضحة من خلال هذا المقطع السردي نجدها في الاتجاه المعاكس، بمعنى: رفض قوانين الجنوب يعني الهروب إلى قوانين الشمال، فيتحول الصراع المجتمعي والقبلي من صراع بين أبناء منطقة (الجنوب) وهي البنية التي تحتويهم ضمن قوانينها الخاصة، إلى صراع بين بنيتين كبيرتين (الشمال والجنوب).

ليصل الكاتب إلى مرحلة حضور الرجل الثري، الذي رفضته بسبب صفات كانت مقنعة بالنسبة لها: "وكان هذا شابا وسيما مفتول العضلات، زاده لونه البني المحروق ألقا وشبابا، وكان يضع في أذنه قرطا فضيا مطعما بحجر من الفيروز، غير أن جميع حركاته وحتى كلامه الناعم الحاد، كانت تكشف أنوثة خفية في هذا الشاب، ولم يرق حديثه للملك، الذي رأى فيه أنثى على هيئة رجل" (جرار، 2014، صفحة 23/22)، قد فقد هذا الشاب معطيات الفحولة المتعارف عليها من الناحية الجسدية، وكانت العضلات المفتولة واللون البني اللذين من المفروض أن يجعلا منه رجلا ينبض بالفحولة مجرد تركيب لصورة مموهة لا تمت بصلة لما هو حقيقي في شخصيته، فالجزء المخنث من الجسد خرب الفرق بين الجنسين وخلط بين الهويتين (الأنثى/ الذكر)، وهذا ما أطاح بمركزيته في الوعي الجمعي عند القبيلة رغم مكانته المادية، وهذا السلوك عرضه للاستغناء من طرف المؤسسة الاجتماعية، وبناء عليه فهو يمثل تهديدا صريحا للنسق الذكوري الذي ربطت السلطة به، ليفقد رأس المال الرمزي (سلطة رمزية تمارس بالتواطؤ وتمنح صاحبها القوة والوقار وتمكن الفرد من التأثير في المجتمع).

قد كانت الصدمة كبيرة على امرأة اتصفت بالقوة والمواقف الصارمة: "ثم ضربت صدرها قائلة: هذا من سيكون زوجي وحامي داري، وأبا لأطفالي، ورب الجبال والرياح هذا لن يكون أبدا" (جرار، صفحة 27)، فانعدام الفحولة في الرجل المتقدم للزواج هو اختراق للنظام الفطري والعقلي عند تنهينان، ومن ثمّ تم إقصاؤه رمزيا، لتنتزع منه شرعية الرجولة والزواج والإنجاب معا، وهذه أسباب كافية لإقصائه خارج المعايير المعترف بها حتى يعترف بكينونته ومركزيته، لذلك قررت تنهينان الهرب لبناء منظومتها الخاصة.

وتشتعل فكرة التحرر من السيطرة في رأس تنهينان: "لكن سيدة الركب كانت على استعداد لفعل أي شيء يخلصها من قيد العبودية باسم الزوجية الذي كان بانتظارها، لقد اجتاحها غموض أنها سلعة سيتم بيعها والتخلص

منها، وكان ذلك كافيا لكي تضع حياتها على محك المغامرة" (جرار، 2014، صفحة 37)، وهذا القرار بالمجازفة يعد بمثابة العقد مع المجموعة الجديدة التي ستتحول فيها المرأة من هامش إلى مركز، تحدد من خلاله ما يجب أن تكون عليه حياتها المستقلة، وفقا للحدود التي رسمتها والأدوار التي رأت أنها من حقها، لتتخلى عن شرف الجماعة بمنظوره البطريكي، وإغلاق أبواب التفاوض مع هذا النظام وفرض هوية لا توجد فيها تبعية، وتجد في رحلتها الاستقلالية لبناء هويتها الخاصة.

وخلال رحلتها كانت تعلم جيدا ما الذي سيواجهها في الصحراء: "حيث سبق لها أن خاضت مغامرات في مجاهل الصحراء، نعم ولم تكن يومها هاربة، وربما ستصبح بعد حين مطاردة، فلا بد أن يلاحقها القوم ليغسلوا بقتلها شرفا أهدرته، هكذا يعتقدون" (جرار، 2014، صفحة 38)، فالهروب رغم معرفة العواقب يعد فعل مقاومة واعية، في مجتمع يرى طلب الحرية من طرف المرأة عارا وليس حقا مشروعا، إذ أبت أن تتحول إلى عملة في سوق بيع الكرامة أو للتداول بين القبائل الأخرى، فانطلقت من الحرية الفكرية إلى الحرية الجسدية لا العكس، حتى تبني نظاما يخلخل المركزية والسلطة القديمة.

وقد أثبتت قناعتها بالحرية حتى في عاملها مع من هربوا معها: "لكن الأميرة قطعت لهم العهد والوعد ألا يمسهم السوء طالما كانوا في قافلتها، وإن أرادوا المغادرة فلهم ذلك، على أن يحفظوا سرها وتحفظ لهم حياتهم، سيدة القافلة كانت بحاجة لمن ينضم إليها ويساهم بإخلاصه ووفائه في تقوية القافلة وشد عضدها" (جرار، 2014، صفحة 61)، تقدم تنهينان درسا تاريخيا واجتماعيا وثقافيا لم تجده في قبيلتها، فالإنسان الذي يؤمن بحريته يعرف أيضا حدود مسؤوليته، وهذا ما يدفع بمن تبعها إلى الولاء لها، لتصبح لها السلطة في تسيير شؤونهم، وفي هذا الصدد يقول فاربو (Verpeau) عن الحرية: "سلطة تقرير المصير المعترف به بواسطة التأثير العام لكل فرد، والذي تقابله إمكانية التصرف دون عراقيل ودون أن يتعدى الحق في السلوك السلبي للدولة" (بلعيد، 2021، صفحة 156)، فمنح الأفراد الذين آمنوا بفكرتها وقيادتها حرية الخضوع أو الرحيل منحها سلطة تسييرهم، ومن ثمّ الخضوع لقوانينها مع عدم التمرد عليها، وتدخلها في إيجاد قوانين تسيرهم بها يعد جزءا من صميم المبادئ التي تكفل استمرارية مبادئهم، حتى تصل مملكتهم بقيادة المرأة إلى بر الأمان ووفقا للنظام الذي افتقدوه في القبيلة.

4. خاتمة:

وقد خلصت هذه الدراسة في رواية تنهينان، إلى مجموعة من النتائج التي تعلل الانقلاب في معايير التهميش، والابتعاد عن النمطية في التراتبية بين المرأة والرجل، ولكن أثبتت كل من الرواية والدراسة أن هذا الانقلاب لا يكون سوى بتوفر أسباب كثيرة، من أهمها:

– من الصعب إيجاد نظام بديل في المجتمعات القبلية من النظام البطريكي، فحين تتجسد فكرة السيطرة والإقصاء، تنشأ طبقية تتجذر بقوانينها عبر الزمن لتخلق مجتمعا هشا، مؤمنا بنظام التبعية وينقسم أفراد مجتمعه إلى إنسان هامشي وإنسان صاحب قيادة السلطة (خواص الناس وعامتهم).

– يهمش الرجل في المجتمعات التقليدية إذا غابت رمزيته الفحولية (جسميا، معنويا، سلوكيا، عقليا، ماديا)، فوجوده يعد تهديدا للجسم الاجتماعي والفطري معا، ورواية تنهينان نموذج سردي جسد عدم انتماء هذا النوع من الرجال إلى مجتمع الجنوب عرفا وسلوكا ومظهرا، رغم المصالح التي كان بالإمكان تحقيقها من خلال هذا الزواج.

– إذا كان قانون الغابة (القوي يأكل الضعيف) فلا مجتمع يضمن لمن البقاء في الأخير حيث تلغى الفرص المتكافئة، فتستحوذ الأقلية القوية على الأكثرية الضعيفة، فتحرم الأغلبية من مشاركتها الفاعلة في المجتمع.

– تنهينان الملكة الأمازيغية تحمل صفات الفحولة المعنوية (الشجاعة والإقدام ورفض العبودية)، وهذا ما جعلها تتحول من هامش إلى مركز، وذلك حين خرق الرجل الآتي من الجنوب الإفريقي، الذي تقدم لخطبة تنهينان، النموذج الذكوري فلم يحافظ على مكانته الاجتماعية ولا الجنسية.

– أعادت تنهينان إنتاج آليات جديدة، من خلال هروبها مع خدمها، لممارسة نفوذ المرأة وتقليص صلاحيات الرجل القبلي في الجنوب، فحافظت على كينونة المرأة، وحولت الاستعباد إلى قوة وسيطرة.

– الهوية والمركزية تبنيان اجتماعيا إثنيا بيولوجيا وجغرافيا وعقديا مبنيا على التمايز والصراع، لا يكتسب وسائل مرنة للتعامل مع أفراده ومع غيرهم من المختلفين عنهم، خاصة إذا تخالطت الأنساب ونشأت فئات هجينة، وبذلك تصبح هذه التفرقة والتبعية والتراتبية مجرد ذرائع تستعملها سلطة ما لتقسيم المجتمعات والسيطرة على الأفراد والمجموعات.

– تبعية الرجل وسيادة المرأة في هذه الرواية لم يكن سببها التداخل بين العرق والجندر معا، بل بسبب عدم شرعية الهيمنة لمن لا يملك مفاتيحها ولا وسائلها التي لولا تمرد تنهينان كانت ستخلق طغاة ومراكز سلطة جديدة، فكان الهرب بمثابة استراتيجية جديدة مضادة لهذا الفعل التعسفي، وبذلك انقلب الهرم الاجتماعي والتاريخي في رواية تنهينان، وبناء عليه تم استطاعت هذه المرأة تحويل واقعها من الطبقة المهمشة سلبية في جنسها وفعلها، إلى الطبقة المركزية والمسيطرة، والتي كتبت تاريخ المرأة في الجنوب بحروف من ذهب.

5. قائمة المراجع:

1. بطرس البستاني، (1995)، قطر المحيط قاموس لغوي ميسر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان.
2. بلحاج صديق، (2024)، تفسير التعصب والحد منه بين النظريات النفسية والاجتماعية، مجلة معارف، المجلد 19، ع 1، جوان 2024، ص 735/734
3. بلعيد غزال، (2021)، مبدأ الحرية وحدود ممارستها، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، المجلد 7، ع 2، ص 156.
4. خليل سليمة، مشقوق هبة، (2011)، الأدب النسوي بين المركزية والتهميش، مجلة مقاليد، ع 2، ديسمبر، ص 2.
5. خليل داليا مزهر، (2024)، أنثروبولوجيا المصاهرة في مجتمعات النزاع: من "رابطة الدم" إلى عصبية النضال، (2000– 1975)"، المجلة العربية للنشر العلمي، 02 حزيران ، ع 68، ص 538
6. شملال سعيد، (1995) ،تجليات الهامش في سينما الجيلالي فرحاتي، *مجلة نزوى*، https://archive.alsharekh.org/Articles/232/17945/403840
7. صبحي حموي، (2000)، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت – لبنان.
8. عبد الرحمن تبرماسين وجيجخ صورية، (2014)، إشكالية المركز والهامش في الأدب، مجلة المخبر، العدد10، جامعة بسكرة، ص 30.
9. كفاح جرار، (2014)، تنهينان نمرة الصحراء، منشورات الأنيس، الجزائر.
10. كفاح جرار، (2022)، الملكة تنهينان، /2022/09/25/منوعات/ الملكة –تنهينان /http://arabicpost.net، 24 جوان 2024.
11. لوو إيان، (2015)، العنصرية والتعصب العرقي من التمييز إلى الإبادة الجماعية، المركز القومي للترجمة، مصر.
12. زكرياء الإبراهيمي ومجموعة من المؤلفين، (2011)، الهامش والهشاشة والإقصاء الاجتماعي، مفاهيم ومقاربات، مركز أطلس للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب.
13. يوسف محمد رضا، (2004)، معجم العربية الكلاسيكية المعاصرة. لبنان ناشرون، بيروت – لبنان.
14. يوسف يعقوب الكندري، (2016)، القبلية والمفاهيم السياسية في المجتمع الخليجي المعاصرة، المجتمع الكويتي مثالا، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، ع 15، المركز العربي، الكويت، ، ص 6/5.